

تجليات البعد الديني في بيان أول نوفمبر 1954 م -قراءة في البيان-

طاهري فاطمة*

الملخص:

يعتبر بيان أول نوفمبر 1954 أهم وثيقة إيديولوجية من ضمن وثائق الثورة الجزائرية ولا يزال محتفظا بقيمته التاريخية على الرغم من مرور ستة عقود من الزمن على صدوره، ورغم تعدد الدراسات حوله إلا أنه من الصعب على الدارس الواحد أن يحيط بكل مفاهيم البيان ويقدم شرحا كاف له، لذا يعالج المقال الذي بين أيدينا جانبا واحدا من الجوانب المتعددة التي تضمنها البيان، وهو الجانب الديني، فقد حملت هذه الوثيقة المرجعية جملة من المبادئ والقيم حتى وإن كانت ذات طابع إنساني أو حضاري إلا أنها مستمدة من روح الإسلام وقيمه، فهي نابعة من أصالة وثقافة المجتمع الجزائري المسلم.

Abstract:

The statement of the first November 1954 is considered the most Important ideological document among the documents of the Algerian revolution and still retains historical value despite the passage of six decades after its release, and despite the many studies about, but

* - طالبة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة محمد بوضياف-المسيلة، الجزائر.

it is difficult for a researcher to cover all the concepts of the statement and provides sufficient explanation to them ; so the article at hands deals with one aspect of the multiple aspects contained in the statement which is the religious side. The reference document has carried a set of principles and values even if they are of humanitarian or civilized nature, but they are derived from the spirit of Islam and its values. It stems from the originality and culture of the Muslim Algerian community.

مقدمة:

تجاوزت الثورة الجزائرية في مفهومها و أهدافها المفهوم الأوروبي للمصطلح، الذي ظهر مع إندلاع الثورة الفرنسية سنة 1789م، الذي يعني تغيير نظام الحكم بالقوة، وهو ما إشتكت في معناه الحركات التحررية التي ظهرت في العديد من دول العالم خلال القرن العشرين، والتي كان هدفها تحطيم الإستعمار وإحلال نظام وطني بدله، ومن ثم فالثورة التحريرية إلى جانب ذلك كانت تهدف إلى إعادة البعد الوطني والحضاري والديني واللغوي للدولة الجزائرية، وإسترجاع قيمها المرتبطة بالحضارة العربية الإسلامية، قبل تعرضها للإحتلال الفرنسي.

فالشعب الجزائري تعرض لأبشع هجمة استعمارية إستهدفت مقوماته، ووظفت فيها الروح الصليبية لقهر الإسلام وتحجيم دوره، وتفتيت الشخصية الوطنية و التشجيع على التجنيس و التمسح، وبقدر ما كانت هذه الهجمة شديدة الوطأة على الشعب الجزائري بقدر ماكان ذلك باعثا له على وجوب التحرر، إذ تمسك الجزائريين بالإسلام و قيمه هذه القيم التي ترسخت في نفوسهم منذ انعم الله عليهم بالإسلام منذ قرون، لذلك نجد البعد الديني

حاضرا و بقوة في الثورات و الإنتفاضات الشعبية خلال القرن التاسع عشر، فقد شكل هذا البعد الدافع الأساسي للدفاع عن الوطن ضد الإستعمار الفرنسي، كما حافظ على الهوية الوطنية و الوجه العربي الإسلامي للجزائر، كما كان حاضرا في مختلف تشكيلات الحركة الوطنية خلال النصف الأول من القرن العشرين، و خلال الثورة التحريرية، و هو ما نلمسه في نصوص الثورة و مواثيقها لعل من أهمها بيان أول نوفمبر 1954م، و عليه يمكننا طرح الإشكالية التالية: هل حمل بيان أول نوفمبر 1954م بعدا دينيا إسلاميا؟ وماهي تجليات هذا البعد؟.

حملت نصوص الثورة و مواثيقها العديد من الأبعاد والخصائص والقيم التحررية والإنسانية والحضارية والدينية، ولئن فقدت بعض هذه النصوص قيمتها بفقدان ظروفها ووقتها الذي صدرت فيه، فإن بيان¹ أول نوفمبر 1954م ازال وسيبقى محتفظا بقيمته التاريخية إلى يومنا هذا، إذ يعتبر أهم وثيقة إيديولوجية من ضمن وثائق الثورة الجزائرية نظرا لعدة إعتبارات منها: أن البيان شكل خلاصة مكثفة نظرية و عملية لنتائج التجربة التاريخية للشعب الجزائري بعد أكثر من قرن وثلث القرن من الكفاح المتواصل، وتشخيص نقدي لأسباب القوة والصمود وعوامل الضعف والخلل، وخطة إجرائية لإنقاذ الجزائر من وضعية لا تطاق، أوصلت الشعب الجزائري لحافة الهلاك، لذا نجد معالم نظرية التحرير، وقواعد المنهج الثوري في هذا البيان التأسيسي، الذي حمل الملامح الأساسية والخطوط العريضة لمشروع مجتمع له هويته وخصوصياته الوطنية والحضارية، وبناء دولة مستقلة².

ورغم أهمية البيان في مسار النضال الوطني للشعب الجزائري ضد الإستعمار الفرنسي، إلا أنه يوجد من المؤرخين من يعتبره مجرد وثيقة كتبت

على عجل غلب عليها الطابع الصحفي أكثر كما لم يجب على بعض النقاط بوضوح خاصة ما تعلق بالهوية الوطنية³، إلا أن البعض الآخر يعتبره عقد ازدياد الجزائر الجديدة⁴.

1- ترجمة البيان و ما وقع فيها من مغالطات:

من المعروف أن بيان أول نوفمبر 1954 قد كتب باللغة الفرنسية ووزع كذلك على الشعب الجزائري صبيحة الفاتح نوفمبر غير أنه يوجد التباس حول مسألة تعريب البيان من قام بتعريبه؟ ومتى؟

فحسب شهادة أحمد سعيد لأبو القاسم سعد الله سنة 2004 ذكر أن مصالح إذاعة صوت العرب هي من قام بترجمة البيان وتمت إذاعته ثم نشر في الصحف المصرية، كما توجد شهادة أخرى لمحمد يزيد مفادها ان فريق من السياسيين المغاربة قاموا بترجمة البيان بالقاهرة وهم الرشيد إدريس وبولعراس وإبراهيم طوبال من تونس، و عبد الكريم غلاب وعبد المجيد بن جلون وابن امليح من المغرب، وهذا يعني وجود ترجمتين لبيان أول نوفمبر⁵، كما قامت جبهة التحرير الوطني بتعريب البيان ولكن لا نعلم من قام بنقله للعربية، ونشرته بجريدة المقاومة وجريدة المجاهد عدة مرات، أما النسخة المعربة المعتمدة رسميا من قبل الدولة الجزائرية المستقلة هي النسخة التي وقع الإتفاق عليها من طرف اللجنة الوطنية التي أسستها وزارة المجاهدين حيث قامت هذه اللجنة بجمع عدد من الترجمات وأخضعها للمقارنة فيما بينها، لتنتهي في الأخير لإختيار نسخة واحدة و هي المتداولة اليوم⁵.

ويقر الكثير بأن ترجمة بيان أول نوفمبر لم تكن ترجمة دقيقة مما أدى إلى تشويه المعنى المقصود، وأحدث كثيراً من الارتباك في الوثيقة إلى درجة أنه أصبح من الصعب تفسير العديد من المواقف المعبر عنها بعكس الصواب و ذلك حسبما يذكر محمد العربي الزيري الذي قام بإعادة ترجمة البيان إلى العربية و تدارك ما وقع من خطأ في الترجمات السابقة- حسبما يذكر- معتمداً على النسخة الأصلية المنشورة بالعدد الخاص من جريدة المجاهد⁶، فالجنة الوطنية التي كلفت بمهمة التحقيق في النسخ المتعددة للبيان لم ترجع للأصل المكتوب باللغة الفرنسية، و إن كانت جبهة التحرير الوطني خلال الثورة معذورة عن ما وقع من عدم الدقة في الترجمة بحجة ضيق الوقت فقد كان الهدف هو تنبيه الشعب بأن الجزائر دخلت مرحلة الكفاح المسلح وإن واجب الجميع هو الإلتحاق بصفوفها، فأى عذر يلتمس لاستمرار هذه المغالطات في الترجمة بعد الإستقلال؟

ومن بين الكلمات التي أدى سوء ترجمتها إلى تغيير المعنى المتوخى منها و هو ما أضعف نص البيان: proclamation التي عرّبت بالإعلان بدلا من البيان، و le bien fondé de nos vues التي عرّبت بمقومات وجهة نظرنا الأساسية بدلا من صواب رؤيتنا، و les patriote التي عرّبت بالمواطنين بدلا من الوطنيين، و la charte التي عرّبت وثيقة بدلا من ميثاق، و غيرها من الأخطاء التي سهلت فيما بعد لتبرير الكثير من الأفكار التي تتناقض مع إيديولوجية الثورة فرغم أن هذه الأخطاء يراها البعض بسيطة كما يقول الزيري: "إلا أن النتائج المترتبة عليها قد سهلت الانحراف الإيديولوجي ورسخت في أذهان الناس مجموعة من المفاهيم التي تتناقض، في جوهرها مع المرجعية الفكرية التي انطلق منها مفجرو ثورة أول نوفمبر 1954"⁸.

2- مضمون البيان:

يلاحظ القارئ لبيان أول نوفمبر 1954م أنه يضم⁹ أربعة محاور أساسية وهي:

أ- الظروف والعوامل الظرفية التي دفعت إلى صياغته، و تقديمه كإعلان و بلاغ لإندلاع الثورة التحريرية، بإسم جبهة التحرير الوطني.

ب- تحديد طبيعة الثورة و أهدافها و وسائل كفاحها، و إطارها الوحدوي المغاربي، مع تأكيد صعوبة المهمة وعظم المسؤولية، لكن نتيجة النصرآت لا محالة، و هو محور يرسم ويحدد المعالم الكبرى للدولة الجزائرية المستقبلية، و أسسها الوطنية.

ج- إبراز طبيعة المعركة مع المستعمر الكولنيالي الأمبريالي، وإعلان شروط التسوية الممكنة معه، مع تقديم الضمانات الكافية لمصالحه المشروعة، الثقافية و الإقتصادية، وكذلك لرعاياه من المستوطنين و حلفائه الآخرين من الجزائريين وغيرهم.

د- إعادة القضية " الثورة " إلى حضنها الطبيعي، و هو الشعب الجزائري -كما إستفتح البيان وختم- و تحميله مسؤوليته في النجاح و تحقيق النصر، و الإعلان عن الإستعداد للتضحية الكاملة لأجل هذه القضية¹⁰.

المبادئ الدينية لبيان أول نوفمبر: إحتوى بيان أول نوفمبر 1954م على جملة من المبادئ والقيم حتى وإن كانت ذات طابع إنساني أو حضاري إلا أنها مستمدة من روح الإسلام و قيمه، فهي نابعة من أصالة المجتمع الجزائري المسلم، و أهم هاته المبادئ نذكر:

1- مبدأ السلم:

يهدف الدين الإسلامي كعقيدة و شريعة إلى تحقيق السلم و الأمن في المجتمع الإنساني، فالسلام من المبادئ التي عمق جذورها الإسلام في نفوس المسلمين فأصبح جزء من كيانهم و عقيدة من عقيدتهم، أما الحرب و القتال أمر طارئ لا يلجأ إليه إلا للدفاع عن المسلمين حينما يكون هناك اعتداء عليهم أو ظلم لهم أو فتنة لهم في دينهم، و هو ما ينطبق على الشعب الجزائري الذي و كما ذكرنا سابقا تعرض لمسخ و طمس هويته.

ورغم ذلك بيان أول نوفمبر 1954م لم يكن دعوة للعنف أو الحرب، بل هو دعوة للسلم و الأمن إذ نص البيان على: ".....و تحاشيا للتأويلات الخاطئة و للتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، و للحد من الخسائر البشرية و إراقة الدماء، فإننا نعرض على السلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة، إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة، و تعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها"¹¹، و هي دعوة صريحة للسلم و تفادي العنف مصداقاً تعالى: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾¹²، و كذلك قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾¹³ فقد تجنب البيان إراقة الدماء، و كل ما ينجم عن النزاعات المسلحة من آثار نفسية و خسائر بشرية و مادية، و تحقيقا لذلك فإنه جنح إلى السلم بتقديم مقترحات للطرف الفرنسي داعياً إياه إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات و حل النزاع سلمياً و على أسس سلمية معلنا إطار الثقة الذي يتعين أن تتم فيه المفاوضات الجادة والذي يستوجب مايلي:

-الإعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية و رسمية

- فتح مفاوضات مع ممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الإعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.

- خلق جو من الثقة بإطلاق سراح جميع المعتقلين و الكف عن كل مطاردة للقوات المكافحة.

بالمقابل تعهدت جبهة التحرير الوطني على الحفاظ على جميع المصالح الفرنسية¹⁴، و بذلك عبر بيان أول نوفمبر عن مبدأ السلم لفضاً و منهجاً، حيث قدمت إلتزامات و ضمانات للجالية الأوربية المقيمة في الجزائر و وضعها بعد إسترجاع السيادة الوطنية إذ نص البيان على أن: "جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم حق الإختيار بين جنسيتهم الأصلية و يعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية، أو يختارون الجنسية الجزائرية وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات"¹⁵، و هو ما يؤكد النزعة السلمية للبيان، وهذا ما أكدته جريدة المقاومة الجزائرية على أن الجزائريين "يدعوهم القرآن إلى ان يسالموا من سالمهم و يوادوا من وادهم، كما ينههم على أن لا يستكينوا لمن يعتدي عليهم و يبغى إذلالهم"¹⁶.

ورغم سلمية الثورة الجزائرية من خلال ما نص عليه بيانها التأسيسي، فقد جاء الرد سريعاً بأن المفاوضات الوحيدة هي الحرب لتقابل بذلك دعوة السلم بموقف تبني منذ البداية المراهنة على حسم النزاع حسماً عسكرياً، و بذلك فإن اللجوء إلى إعلان الثورة ضد الوجود الاستعماري هو نتيجة موضوعية و حتمية لهذه السياسة الإستعمارية، و من باب الدفاع عن النفس كما تصورها الآية الكريمة ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾¹⁷ وقوله تعالى أيضاً ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

الْمُتَّقِينَ¹⁸، إذ كان لابد من رفع الظلم عن الشعب الجزائري ولا سبيل لذلك إلا بحمل السلاح لرد العدوان خاصة أمام تعنت الإستعمار الفرنسي ورفضه الدخول في المفاوضات.

وقد أكدت الأحداث المتلاحقة إنتصار نهج جبهة التحرير الوطني وإنجاز الرأي العام العالمي لطروحاتها السلمية، مما جعل الطروحات الإستعمارية تتراجع و أساليبه القمعية تنكشف لدرجة أضحت فرنسا الدولة الكبرى مهددة بالإنهيار وكان النصر في النهاية للمبادئ السلمية التي جاهد من أجلها الشعب الجزائري¹⁹.

2- مبدأ الوحدة:

رفع الإسلام من مكانة الوحدة وإعتبرها من الثوابت الأساسية التي يركز عليها المجتمع المسلم، وقد جاءت النصوص القرآنية صريحة وعديدة في هذا الشأن، كقوله تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾²⁰، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الدعوة إلى توحيد الكلمة وجمع الشمل والتماسك حول هدف واحد، وهو تحقيق الإستقلال بالنسبة للشعب الجزائري.

وبيان أول نوفمبر 1954 يشير إلى مبدأ الوحدة ويدعوله وذلك على المستويين الداخلي والخارجي، فعلى المستوى الداخلي دعى البيان إلى تجاوز الصراعات التي عرفت الحركة الوطنية قبيل إندلاع الثورة التحريرية إذ نص على: "...و نتيج الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الإجتماعية، وجميع الأحزاب و الحركات الجزائرية البحتة فرصة الاندماج في الكفاح التحريري دون أدنى إعتبار آخر"²¹، وهي دعوة صريحة للإتحاد و تجسيدا فعليا لوحدة الهدف.

كما نص البيان أيضا على: "...القضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الإصلاح التي تسببت كانت في تخلفنا الحالي، وتجميع وتنظيم الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري"²²، ليؤكد البيان مرة أخرى على فشل السياسة التي إعتمدتها الحركة الوطنية، موصيا بالإبتعاد عنها والدخول بسرعة في الطريق السليم بواسطة العمل الثوري كأسلوب أمثل لتوحيد الشعب الجزائري المؤمن بالفعل الثوري، لما للوحدة من أهمية قصوى فهي السلاح فعال لخوض غمار الثورة، لذلك جاءت تسمية الحركة الجديدة جبهة التحرير الوطني على هذا الأساس، إذ تضم جميع الجزائريين على اختلاف إنتماءاتهم الحزبية وأوضاعهم الإجتماعية دون قيد ولا شرط، وهذا الفكر لا يعتبر الوحدة وسيلة فقط وإنما يعتبرها هدفاً كذلك يضمن ديمومة الحركة الجديدة²³.

وقد ظل مبدأ الوحدة يمثل صمام الأمان للثورة الجزائرية، وهو المبدأ الذي تكسرت دونه كل محاولات الهادفة إلى إيجاد قوة ثالثة قصد زعزعة وضرب إنفراد الجبهة كتنظيم وممثل شرعي ووحيد للثورة والشعب الجزائري، كما يعتبر هذا المبدأ من أهم خصائص الثورة التحريرية مقارنة بباقي حركات التحرر والتي لم تتمكن من الحفاظ على وحدتها مما سهل عمليات إختراقها و تفجير تناقضاتها الداخلية²⁴.

أما على المستوى الخارجي فقد أشار البيان إلى وحدة بلدان شمال إفريقيا حيث نص في أهداف الثورة الخارجية على "تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي والإسلامي"²⁵، وفيه أيضا إشارة إلى الوحدة العربية، وعليه فإن الوحدة في مفهوم محرري البيان سواء كانت هذه الوحدة وطنية أو جغرافية تشير إلى الدين الإسلامي الذي يشكل وحدة

هذه الشعوب إنطلاقاً من تاريخها و مصيرها المشترك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾²⁶.

3- موقف البيان من الطوائف الدينية:

لم يكن بيان أول نوفمبر 1954 تحريضاً و لا عدائياً كما سبق و أن ذكرنا، بدليل أنه دعى إلى حفظ و حماية حقوق الأقليات الدينية، حيث نص في أهدافه على: "احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي او ديني"²⁷، فسمح بذلك بحرية الاعتقاد الديني داخل الدولة الجزائرية المستقلة المستقبلية، وهو أيضاً تطبيق لمبادئ و تعاليم الدين الإسلامي، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾²⁸، و قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾²⁹ فالدولة الإسلامية لم تنكر على مواطنها غير المسلمين حقهم في العيش آمنين داخل حدودها لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين، كما لم يعرف التاريخ الإسلامي تقاليد الإستئصال الديني أو العرقي، والتي عرفتها التقاليد الغربية و العلمانية³⁰.

ومن أسباب الجهاد في الإسلام، و الذي رفعت رايته الثورة الجزائرية ضد الإستعمار الفرنسي، هو الدفاع عن حرية العقيدة، فحرية العبادة لليهود و النصرى و غيرهم كفلها الإسلام لهم، بل و جعل حماية أماكن عبادتهم ضمن مسؤوليات المسلمين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾³¹، كما يحرم مس رجال دينهم و أطفالهم و نساءهم و رجالهم الذين لم يشاركوا في العدوان على المسلمين، فإسلام شرعاً يوفر لكل هؤلاء الحرية

الدينية التامة، فقبول بيان أول نوفمبر 1954 بتعدد الديانات هو نابع من روح الإسلام وقيمه.

كما أكد البيان أيضا على ان الهدف من هذه الثورة التي يدعو لها "موجبة فقط ضد الإستعمار الذي هو العدو الوحيد الاعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية"³²، فالثورة قامت بهدف الحصول على الحرية وإسترجاع مواطنة الجزائري بصرف النظر عن عقيدته الدينية، كما تستهدف كذلك محاولة القضاء على إحدى مخلفات الإستعمار في مجال التمييز بين سكان الجزائر بين مستوطنين أوروبيين والجزائريين الذين قضى على هويتهم الوطنية لتحصر وصفهم بالمسلمين، وهو ما تعكسه بوضوح الضمانات المقدمة في بيان أول نوفمبر والتي ليس فيها ما يفيد التمييز على الأساس الدين³³.

كما أن جبهة التحرير من خلال كتاباتها وخطبها رسخت ما جاء في البيان أكثر حيث وجهت عدة مرات نداءات مهدئة للأقليات الدينية، وأعربت عن موقفها الذي يدعو إلى ضرورة التعايش المنسجم بين مختلف الطوائف الدينية التي تعيش في الجزائر، كالمقال الوارد في جريدة المقاومة ومما جاء فيه: "...فالجزائر إذا ثارت على الإستعمار الفرنسي الباغي لفك القيود و استرجاع الحق المغصوب في السيادة والكرامة مضحية في سبيل ذلك بالنفس و النفيس لم تخالف في ذلك قوانين السماء ولا مبادئ الإنسانية النبيلة و لم تكن مدفوعة في ثورتها العادلة هذه بدافع عصبية دينية أو عنصرية جنسية كما تردد الأبواق الاستعمارية ذلك حيناً بعد حين تبريرا لعدوانهم فالجزائريون بحكم دينهم منهيون على أن يحاربوا أحداً لأجل هذه الدوافع الخسيسة أو الأغراض الدنيئة ..."³⁴.

ومما يؤكد هذا الموقف ما جاء في مجلة ميدي (midi) (صحيفة la) (campagne de Jesus حملة يسوع): "يجب أن نقوله بقوة، فبالرغم من الانفجارات المحلية للتعصب البدائي الذي يمكن أن يعزى إلى الجهل أو الحقد اللامعقول:" فإنه ليس هنالك من حرب مقدسة في مأساة الجزائر اليوم"، فالآباء البيض يعرفون ذلك جيداً، لأنهم يرون أن مدارسهم لا تحرق، وهؤلاء الراهبات اللواتي إذ يصادفن جماعات الثوار والفلاحين في الطريق، يرين التحية تقدم لهن باليد، مع كلمة: "صباح الخير أيتها الأخت"، فليس الإسلام هو الذي يحارب المسيحية، بل هو رجال يناضلون لكي يتقاسمون مع ما يعتبره المسيحيون قبل كل الناس أهم من الحياة نفسها: أي الحرية في أن يكونوا بشراً".³⁵

فجبهة التحرير كما ذكر سليمان الشيخ عرفت كيف تنجو من خطر التعصب الديني³⁶، من خلال استنادها على الدين الإسلامي في حد ذاته فيما يخص مسألة الأقليات الدينية، فالإسلام دين لمعتقديه فقط، أما لغيرهم فهو نظام، فهذا النص يدل على التجسيد الفعلي لمبادئ بيان أول نوفمبر 1954، و ذلك بشهادة الطرف الآخر، كما أن البيان فيه إقتداء بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال وثيقة المدينة التي وضعها النبي بين المسلمين و طوائف المدينة، فقد حاول بيان أول نوفمبر صهر الجميع رغم التنوع العقدي في مجتمع مدني مكون للدولة الجزائرية المستقلة.

4- الدفاع عن الوطن:

يعتبر الدفاع عن الوطن بالنسبة للمسلم واجبا دينياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

المُعْتَدِينَ³⁷، وقد دعى بيان أول نوفمبر للدفاع عن الوطن وحمانيته لتحقيق الإستقلال، أو ما يسمى بالتمايز عن أصحاب الديانات الأخرى في كل شئ تفكيراً ومنهجاً في الحياة.... إلخ، والذي دعى إليه الإسلام، فالاستعمار الفرنسي منذ احتلاله للجزائر عمل على القضاء على هذا التمايز وكل المظاهر الإسلامية لتحل محلها المظاهر الأوروبية.

لذا جاء بيان أول نوفمبر 1954م ليؤكد هذا التمايز حيث نص على: "إعادة بناء الدولة الجزائرية الديمقراطية الإجتماعية ذات السيادة، في إطار المبادئ الإسلامية"³⁴ ولا يتحقق الهدف الذي هو الإستقلال إلا بالجهاد الذي يعتبر أهم ركائز الدين الإسلامي، ورغم أن البيان لم يتضمن دعوة صريحة للجهاد، إلا أن الشعب الجزائري هو الذي أعطى للثورة هذا البعد الديني الجهادي، ويذكر مالك بن نبي أن "الفلاح الجزائري هو الذي أعطى للثورة محتوى مفاهيمياً في عبارات جد بسيطة، وقد وضع فيها شعوره بالتضحية، وشعوره بالمقدسات، وهو الذي جعل منها معركة مقدسة.... كان الفلاح يناضل من أجل استقلال الجزائر وهو على وعي بأنه شخص عربي وإنسان مسلم"³⁹، ونستحضر هنا شهادة المجاهد محمد الصالح بوسلامة حيث ذكر أن بيان أول نوفمبر كان دعوة "لمن أراد أن يحمل لقب مجاهد على شرط أن ينزع من نفسه كل لقب و يأتي فردياً ولا يحمل معه إلا نية الجهاد في سبيل الله و الوطن"⁴⁰، فالإنسان الجزائري البسيط هو الذي فسر العمل و الكفاح المسلح الذي نص عليه بيان أول نوفمبر على أنه دعوة للجهاد المستمد من الدين الإسلامي الذي يشكل كما يقول سليمان الشيخ "محرك ضخمة للوطنية المحاربة"⁴¹.

واللافت للانتباه ان مفهوم الجهاد و مفهوم الوطنية من المفاهيم المتداخلة في الثورة الجزائرية، والمضمرة في ذات الشعب الجزائري، و من الصعوبة الفصل بينهما ومعرفة الدافع وراء التحاق الجزائريين بصفوف الثورة، هل هو بدافع ديني محض؟ أم هو تعبير عن نضج الشعور الوطني لدى الجزائريين؟

يعتبر انضمام المجاهدين للثورة بدافع الحصول على الشهادة و نيل الحرية معا و هنا نقدم الشهادة على الحرية فالإنسان مهما كان لا يرضى ان يموت من أجل أن يتمتع غيره من الأحياء بالحرية فلولا الشهادة التي تضمن للشهيد النعيم في الآخرة لقل المجاهدون حسبما يذكر محمد صالح الصديق الذي يرى أن: "الشهادة بإشراقاتها المثيرة المغرية، هي التي تدفع إلى المعركة بقوة، و تظل الحافزة و الدافعة، و المفجرة للطاقة المعنوية في أعماق الإنسان، حتى يسقط شهيدا والبسمة تتراقص على ثغره"⁴² فالجزائريين (الجاهل، العالم، الأمي، المتعلم، الغني، الفقير، الصغير و الكبير) جمعتهم كلمة الجهاد فكان شعارهم النصر و نيل الإستقلال أو الاستشهاد و دخول جنات النعيم مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)﴾⁴³.

وللتدليل على تداخل مفهوم الجهاد و الوطنية طبيعة الأسئلة التي كانت تطرح على الجزائريين حسب ما يذكر الحاج لخضر قبل الإلتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني و من بينها:

1- هل تعلم انك ستلتحق بالثورة لتستشهد في سبيل الوطن والدين واللغة.

2- تلتزم بالصلاة في وقتها و تجعل في تصورك قوة الله فوق كل القوى وهو معنا حيث أمرنا أن نكون ونبتعد حيث نهانا ألا نكون.

3- لك الحق في الشهادة وحدها⁴⁴.

كما أنه من بين الشروط اللازمة للالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني يجب على المجاهد أن يؤدي القسم أمام المجاهدين حيث يمد يده على المصحف الشريف ويقول: "أقسم بالله أن أكون وفيّاً للثورة المسلحة و ألتزم بجد و إخلاص لوطني حتى النصر أو الاستشهاد"⁴⁵، فالدافعين يكملان بعضهما البعض، فالجهاد في سبيل الله الغاية منه هي تحرير الدين و الوطن⁴⁶، فروح الجهاد و الرغبة في نيل الشهادة هي التي جعلت المجاهد الجزائري يجابه الدبابات والطائرات و يقتحم القواعد المحصنة ببنادق الصيد القديمة، وهو أن يقبل الاستشهاد تحت التعذيب دون أن يحصل منه العدو على أية كلمة سر، و أن يدفع بالمسبل إلى اقتحام المعارك الطاحنة بيدين عزلاوين ليفتك منها قطعة السلاح كي يصبح بعد ذلك عضوا في صفوف جيش التحرير الوطني، وروح الجهاد هي التي جعلت الأم الجزائرية تزغرد أمام جنود الإحتلال على وحيدها الذي أوتي لها به شهيدا مخضبا بدمائه تعبيرا على سعادتها بمشاركته في ثورة الجهاد وفوزه بالوعد في عالم الخلود⁴⁷.

وقد عبرت جبهة التحرير الوطني عن مفهوم الجهاد عند الجزائريين من خلال جريدة المقاومة حيث إعتبرت "الجهاد معناه مكافحة الظلم و مدافعة الطغيان و إسترجاع الأفراد و الجماعات لما سلب منهم من حقوق، و هو فوق كل ذلك يحمل معنى التصميم القوي على السير نحو الكمال في جميع الميادين"⁴⁸، و بذلك وسعت جبهة التحرير الوطني من مفهوم الجهاد.

والظاهر أن قادة الثورة تجنبوا ذكر مصطلح الجهاد في بيان أول نوفمبر، لعدة إعتبارات من أهمها الخوف من إعتبار الثورة الجزائرية حركة تعصبية او حربا دينية، و بالتالي تأليب الرأي العام العالمي خاصة العالم الأوروبي المسيحي ضدها، ورغم ذلك حاولت فرنسا إخفاء و تحريف طبيعة الصراع الحقيقي، بتقديم تفسير ديني إلى درجة ان أصبح ساسة فرنسا وكأنهم ينادون بحرب صليبية جديدة من خلال ما كانت تتضمنه تصريحاتهم من تركيز على البعد الديني ⁴⁹ ، وقد تصدت جبهة التحرير الوطني لذلك، فقد جاء في العدد الثاني لجريدة المقاومة العبارات التالية: "..ان ثورتنا تتسم بالطابع الديني حقا، لكن لا على المعنى التعصبي الذميم الذي يحاول الاستعمار ان يلصقه بها زوراً و بهتاناً بل على المعنى الإسلامي الأوسع السمع إلا و هو التحرر الكامل من جميع القيود التي تعرقل الإنسان عن البلوغ الى أعلى درجات الكمال الممكن له، و ما الاستعمار في الحقيقة و الواقع صخرة كبيرة جاثمة في طرق التقدم و الرقي في جميع ميادين الحياة، ولذلك نسمع الامة تدعو أبطالها المكافحين: " مجاهدين " و تسمي كفاحهم التحرري " جهاداً " ⁵⁰ ..".

وقد منح البيان مكانة هامة للدين الإسلامي كعامل مهم ومؤكد للشخصية الإسلامية للمجتمع الجزائري، وفي نفس الوقت دافعا ومحركا للمطالبة بالاستقلال و تحطيم النظام الاستعماري، وهو ما يعرف بالإسلام السياسي الذي شكل مرجعا وإيديولوجية محركة للمجتمع، فالإسلام لم يبق مرتبطا بالجانب العقائدي فحسب بل تعداه إلى المجال السياسي، بعد ارتباطه بفكرة المقاومة والتحرر، ورغم عدم تضمنه لمبدأ الجهاد بشكل واضح وصريح، كما سبق ذكره، إلا أن جبهة التحرير دعت إليه من خلال كتابات قادتها وخطاباتهم، سواء في جريدة المجاهد أو في جريدة المقاومة ⁵¹ .

الخاتمة:

من خلال هذه القراءة البسيطة في بيان أول نوفمبر 1954م، يتضح لنا انه كان يحمل بعداً دينياً تجلى هذا البعد في المبادئ التي ذكرناها سابقاً، كسلم، والوحدة، وغيرها من المبادئ والتي حتى ولم يعبر عنها البيان بشكل واضح وصريح، إلا أنه يمكن قراءة هذه القيم في ثنايا البيان.

كما نلاحظ أن البعد الديني للثورة الجزائرية كان تجسدياً على أرض الواقع في سلوكيات المجاهدين، أكثر منه على المستوى التنظيري في نصوص الثورة ومواثيقها، وذلك لعدة دوافع ذكرنا أهمها سابقاً، فالشعب الجزائري الذي شكل قاعدة الثورة ووقودها الأساس، والذي كان الإسلام إيديولوجيته، هو الذي أعطى هذا التفسير وهذا البعد الديني لمبادئ البيان وقيمه، وفق ثقافته الإسلامية المترسخة في العادات والقيم الجزائرية.

الهوامش:

1. النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني (1954-1962)، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1979، ص ص (7-10).
2. محمد العربي ولد خليفة، "الثورة الجزائرية و مكاسيها الباقية"، المصادر، العدد2، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 1999، ص 81.
3. البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، ج5 (1954-1962)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص8.
4. فرحات عباس ليل الإستعمار، تر: أبو بكر رحال، الوكالة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص275.
5. *أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي-مرحلة الثورة- (1954-1962م)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص82.

6. محمد العربي الزبيري، حزب جبهة التحرير الوطني من الشرف إلى العلف- تشريح الأزمة-، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص 257.
7. المرجع نفسه، ص ص (289-292).
8. نفسه، ص 286.
9. للتوسع حول مضمون البيان ينظر: محمد جغابة، بيان أول نوفمبر 1954 دعوة إلى الحرب، رسالة للسلام، قراءة في البيان، دار هومة، الجزائر، ص 27 وما بعدها.
10. يوسف قاسمي، مواثيق الثورة (1954-1962)، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2009، ص 120.
11. محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 291.
12. سورة النساء، الآية 90.
13. سورة الأنفال، الآية 61.
14. النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص 10.
15. نفسه.
16. جريدة المقاومة الجزائرية لسان حال جبهة و جيش التحرير الوطني، عدد 12 جانفي 1957، ص 3.
17. سورة البقرة، الآية 190.
18. سورة البقرة، الآية 194.
19. عمار رخيلة، "أبعاد و مفاهيم في بيان أول نوفمبر 1954"، المصادر، العدد 4، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2001، ص 70.
20. سورة آل عمران، الآية 103.
21. الزبيري، المرجع السابق، ص 290.
22. النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص 9.
23. فتح الدين بن أزواو، إيديولوجية الثورة الجزائرية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، إشراف محمد العربي الزبيري، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص ص (79-80).

24. عماررخيلة، المرجع السابق، ص 61.
25. النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني، ص 9.
26. سورة المؤمنون، الآية 53.
27. النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني، ص 9.
28. سورة البقرة، الآية 256.
29. سورة يونس، الآية 99.
30. للتوسع حول موقف الإسلام من الأقليات الدينية ينظر كتاب: يوسف القرضاوي، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، ط1، مكتبة وهبة، مصر، 1996، ص 27 وما بعدها.
31. سورة الحج، الآية 40.
32. النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني، ص 8.
33. عماررخيلة، "البعد الإنساني في الثورة الجزائرية"، المصادر، العدد 7، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، نوفمبر 2002، ص 49.
34. جريدة المقاومة الجزائرية، العدد 5، 12 جانفي 1957.
35. نقلاً عن سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح او زمن اليقين (دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية و الثورة المسلحة)، تر:محمد حافظ الجمالي، دارالقصبة للنشر، الجزائر، 2003، ص 401.
36. نفسه.
37. سورة البقرة آية 90-91.
38. الزيري، المرجع السابق، ص 290.
39. مالك بن نبي، آفاق جزائرية، تر: الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (د.ت)، ص ص (215-2016).
40. **مداخلة صالح فركوس، " البعد الروحي للثورة الجزائرية"، الملتقى الدولي الاول حول تاريخ الثورة الجزائرية الإستعمار الفرنسي (المنطلقات-الحقائق و الأبعاد) 11 و 12 ديسمبر 2006، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، دار الهدى للطباعة و النشر، الجزائر، 2007، ص 144.

41. سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص 399.
42. محمد الصالح الصديق، البعد الروحي في ثورة نوفمبر التحريرية، موفم للنشر، الجزائر، 2014، ص 80.
43. سورة آل عمران.
44. الطاهر حليس، قبسات من ثورة نوفمبر 1954 كما عايشها العقيد الحاج لخضر قائد الولاية الأولى، شركة الشهاب، الجزائر، (د.ت)، ص 84.
45. أحسن بومالي، إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1962م، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، (د.ت)، ص 85.
46. سعد دحلب، المهمة المنجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، 2004، ص ص (12-13).
47. أحمد بن نعمان، جهاد الجزائر حقائق التاريخ و مغالطات الجغرافيا، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص 266.
48. جريدة المجاهد، العدد 8، أوت 1957، ص 3.
49. عمار رخيلا، البعد الإنساني في الثورة الجزائرية، ص 51.
50. جريدة المقاومة، العدد 2، 15 نوفمبر 1957، ص 2.
51. أنظر جريدة المقاومة عدد 12 جانفي 1957، و العدد 9 (18 مارس 1957).